الصَّرفة.. دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها

د. سامي عطا حسن *

* أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن – كلية الدراسات الفقهية والقانونية – جامعة آل البيت – الأردن.

ملخص البحث:

الصَّرْفَة على وزن فَعْلَة – بفتح الفاء، وسكون العين وفتح اللام: رد الشيء عن وجهه، وهي في الاصطلاح: أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن، وكان في مقدورهم ذلك، وهذا القول من التيارات التي وفدت علينا من الخارج، وأول من قال به إبراهيم النظام – من فلاسفة علم الكلام – وهو بهذا ينفي الإعجاز عن القرآن، ويجعله في مستوى الكلام البليغ، ولا فضل للقرآن – في ذلك – على غيره. وقد رد عليه علماء الأمة، وسفهوا رأيه، وبينوا أن العرب وقفوا مبهورين أمام فصاحة القرآن، ولا يوجد أدنى مقارنة بين كلامهم وكلام الله، ولا بد من الإشارة إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: – أن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون، وذكر أوثانهم بغير ما يحبون، فإنهم لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، إذعانا لبلاغته وفصاحته، مع أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فما فعلوا لئلا يسفوا في تفكيرهم، فدل هذا على عجزهم المطلق، (إذ نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم، وتحت مقدورهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب راجح..)

الحقيقة الثانية: – أن القرآن جذب كثيرا من العرب إلى الإيمان بما فيه من قوة بيان وإيجاز معجز، وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها، وإطنابها الرائع، وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها حقها، بالعبارة الناصعة، والإشارة الواضحة، فأدركوا أن إعجازه ذاتي، نابع منه، وأنه فوق طاقة البشر. وهذا يقودنا إلى أن القول بالصرفة قول باطل، وساقط عن الاعتبار، وإن قال به نفر من أعلام العلماء، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف بسلامة الاستدلال.

إن إعجاز القرآن ذاتي، فهو معجز بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، مما جعل العرب يستعظمون بلاغة القرآن وفصاحته، ولو كانوا مصروفين عن المعارضة، لكان تعجبهم للصرف، لا للبيان المعجز، ولو كان هناك سلب لعلومهم، لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك، بطل القول بالصرفة.

تمهيد:-

كان للقرآن الكريم - ولا يزال - مكان الصدارة في دراسات الباحثين، فهو معجزة الرسول الخاتم - عليه الصلاة والسلام-، والقانون المنظم للسلوك، والمرشد إلى معالي الأمور.

وكان العرب حين نزول القرآن كأنما شدوا بأمراس كتان الى صم جندل، فهم يسمعون القرآن ويعجبون به، ويكادون يسجدون لفصاحته، ويوقنون يقين العارف الخبير- أنه ليس من قول البشر(١)، لقد كان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية في مخاطباته، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم، وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا في النفوس. ومضى القرن الأول، وتبعه القرن الثاني، والعلماء لا يمسون نواحي إعجاز القرآن إلا مسا خفيفا، فلما كان القرن الثالث، وبدأت السليقة العربية تفقد صفاءها، وبدأت الثقافات المختلفة، والفلسفات الهندية، والفارسية، واليونانية، تتسلل إلى المجتمع الاسلامي، اتسعت الخلافات المذهبية، وتعددت النحل، وتفرقت الأهواء والسبل، واحتدمت المعارك، وقويت الخصومة، وعنف الجدل حول الآراء الكلامية، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها الفحول، وتصاولت في رحابها الوسيعة القروم، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن، فبرز قول غريب في البصرة التي كانت تموج بالتيارات الفكرية المختلفة، مفاده: أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد: ابراهيم بن سيار النظام، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة، عند ذلك عكف العلماء على دراسة كتاب الله بصورة علمية منظمة، لاستجلاء مواطن الجمال في تعبيره

---

(١) انظر مقال: مذهب الصرفة، مجلة الأزهر الشريف، مجلد / ٢١، ١٣٦٩هـ، د. علي محمد حسن العماري ص/٤١.

الفني، والأسرار البلاغية في بيانه المعجز[٢]، فكان نتيجة لذلك مؤلفات في الإعجاز لها مكانتها، كما كان من ذلك ثروة كبيرة من الأقوال المبسوطة في إعجاز القرآن تضمنتها كتب علم الكلام وعلم التفسير. ولا أريد في هذا البحث سرد وجوه إعجاز القرآن التي قال بها العلماء، وإنما سألقي الضوء على قول ظنه بعض العلماء وجها من وجوه الإعجاز، وهويقينا ليس منها، وإن كان له كبير الأثر في نشأة علوم البلاغة، وفي تأليف كتبها فيما بعد.

وقد قسمت هذا البحث إلى: تمهيد، وستة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول: بينت فيه معنى الصرفة لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني: بينت فيه مصدر القول بالصرفة.

وفي المبحث الثالث: ذكرت القائلين بالصرفة من المعتزلة.

وفي المبحث الرابع: ذكرت القائلين بها من أهل السنة.

وفي المبحث الخامس: ذكرت القائلين بها من الشيعة الإمامية.

وخصصت المبحث السادس: لردود المعارضين للصرفة.

ثم بينت في الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في العرض لهذا الموضوع.

---

(٢) د. نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن، ص ٩٨.

المبحث الأول
معنى الصرفة لغة واصطلاحا

الصرفة لغة: على وزن فعلة - بفتح الفاء واللام وسكون العين -: رد الشيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه، صرفا، فانصرف،وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه. قال تعالى: (ثم انصرفوا)[٣] أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا منه، وقيل: - انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا. وقوله تعالى: - ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[٤] أي: - أضلهم الله، مجازاة على فعلهم، وصرفت الرجل عني فانصرف).[٥]

وتعني الصرفة في الاصطلاح: أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن، وكانت في مقدورهم، لكن عاقهم عنها أمر خارجي، فصار معجزة كسائر المعجزات، ولو لم يصرفهم عن ذلك، لجاءوا بمثله.[٦]

وقد اختلف القائلون بالصرفة في بيان حقيقة ما يقصده هؤلاء بالصرفة، فقالوا: إن الله سبحانه - لأجل إثبات التحدي - حال بين فصحاء العرب وبلغائهم، وبين الإتيان بمثل القرآن بأحد الأمور الثلاثة التالية: -

١ - صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلما هموا بها، وجدوا في أنفسهم صارفا ودافعا يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة، ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم عن الانصداع لهذا الأمر، بل إن المقتضي فيهم كان تاما، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر، ولولا ذلك لأتوا بمثله.

---

(٣) سورة التوبة / ١٢٧.. والآية بتمامها ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

(٤) سورة التوبة / ١٢٧.

(٥) ابن منظور: لسان العرب - ج٧/ صفحة٣٢٨ (مادة صرف).

(٦) الزركشي: البرهان في علوم القرآن - ج٢/ ص ٩٣. والسيوطي: الاتقان في علوم القرآن - - ج٢ / ص ١١٨.

٢ - سلبهم - سبحانه - العلوم التي كانت العرب مالكة لها ومتجهزة بها، وكانت كافية للإتيان بما يشاكل القرآن، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله.

٣ - إنهم كانوا قادرين على المعارضة، ومجهزين بالعلوم اللازمة لها، ولكن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة، مع كونهم قادرين، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم.(٧)

وقد بين جمهور العلماء، أن الصرفة بكل صورها، تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن، وأنها وهم ذهب إليه خيال القائلين بها، دون سند، أو دليل.

(٧) العلوي: الطراز - ج٣/ ص٢٩١. وانظر العماري: حول اعجاز القرآن - سلسلة الثقافة الإسلامية، عدد: ٤٤. والخالدي: البيان في اعجاز القرآن، ص ٨٢ - ٨٣.

المبحث الثاني
مصدر القول بالصرفة

يعزى القول بالصرفة عند كثير من الباحثين، إلى أنه من التيارات التي وفدت علينا من الخارج، وأن بعض المتفلسفين من علماء الكلام، وقفوا على أقوال البراهمة في كتابهم الفيدا(٨)، وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها – في زعمهم – ، بل يقول خاصتهم: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله، لأن – براهما –(٩)صرفهم عن أن يأتوا بمثلها، يقول – أبو الريحان البيروني (ت سنة ٤٣٠هـ) في كتابه – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة – ما نصه: (إن خاصتهم يقولون: إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراما لها)(١٠)، والظاهر أن هذه الفكرة قد وفدت للساحة الفكرية الإسلامية، عندما ترجمت الفلسفات الهندية في عهد – أبي جعفر المنصور –(١١) ومن جاء بعده من حكام بني العباس، فتلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الإغراب في أقوالهم، هذه الفكرة الغريبة الوافدة، ودفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا هذا القول ويطبقوه على القرآن، – وإن كان لا ينطبق – ، فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه، ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله.)(١٢)

ومما يؤيد احتمال كون فكرة – الصرفة – من التيارات الفكرية الوافدة، ما

---

(٨) الفيدا: كتاب يشمل أربعة كتب مقدسة للهندوس، وقد كتب باللغة السنسكريتية محمد غلاب: مشكلة الألوهية – ص٩٧.

(٩) براهما: من آلهة الهندوس، وهو عندهم مرادف للمطلق الأعلى أو (الأتمان) المرجع السابق ص ٩٨.

(١٠) نقلا عن د. عرفة بسيوني: فكرة النظم في تطورها وأهدافها، ص ٣٥.

(١١) أبو جعفر المنصور: عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، ولد سنة ٩٥هـوتوفي سنة ١٥٨هـ: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩.

(١٢) أبو زهرة: المعجزة الكبرى – القرآن: – ص ٦٩ – ٧١،

ذكره الجاحظ – في كتابه البخلاء – من صور هذا الغزو الفكري الذي بدأ يتسرب إلي ديار المسلمين في صدر العصر العباسي، منذ أن اتخذ أبو جعفر المنصور – الطبيب جورجيس بن بختيشوع – طبيبا خاصا له، قال الجاحظ: (إن طبيبا عربيا مسلما يدعى – أسد بن حاني – كسدت حاله مرة، فقال له قائل: السنة وبيئة – – أي: كثيرة الأوبئة – والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين يأتيك الكساد ؟ قال: أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي: صليبا أو يوحنا، وكنيتي: أبو الحارث، وكان ينبغي أن يكون: أبو عيسى، أوأبو زكريا، أو أبو ابراهيم، وعلي رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون علي رداء حرير أسود. ولفظي عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل – جند يسابور –)[١٣]، وهذه الرواية إن دلت على تسامح المسلمين، وبعدهم عن التعصب الذي يرميهم أعداؤهم به ظلما وعدوانا، فهي تدل كذلك على تسلل الغزو الفكري، حتى استمكن وتوطن في عصر كانت الدولة الإسلامية رافعة أعلام عزها، وباسطة سلطان مجدها.

وقد أ لمح الدكتور أحمد فؤاد الأهواني إلى أسباب هذا الغزو الفكري فقال: (كان معظم المشتغلين بالعلم والفلسفة نصارى، وصابئة، وكان من الطبيعي أن يعنى بالفلسفة أولئك الذين كانوا من المشتغلين بها قبل دخولهم في الإسلام، وكان أغلبهم من السريان، والصابئة، ولقد كتب كثير من اليهود، والنصارى، والصابئة، مؤلفات باللسان العربي، بعد انتشار الإسلام، واستقرار قواعد الدولة الإسلامية.)[١٤] فلا غرابة في انتقال قول البراهمة في كتابهم المقدس – الفيدا – ، إلى بعض المسلمين، عن طريق المشتغلين بالفلسفة، أو الذين يتلقفون كل وافد من الأفكار، ومنها فكرة الصرفة.

---

(١٣) الجاحظ: البخلاء – ص ٧٨.

(١٤) د. أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب – سلسلة أعلام العرب عدد/٢٦.

وقد خالف الدكتور أحمد أبو زيد كثيرا من الباحثين حين قال: (فإيراد قضية إعجاز القرآن في سياق هذا البحث المتعلق بالصرفة، وفي معرض الرد على الدهريين، يفيد بأن هذه النظرية إنما وضعت للدفاع عن القرآن، وتنزيهه عن مطاعن الملحدين.)[١٥] فهو يرى بأن هذه النظرية نبتت في بيئة المعتزلة للدفاع عن القرآن، ولا ينكر أحد دور المعتزلة في الدفاع عن القرآن، وبيان إعجازه، وأسراره البيانية، إلا أن عدم اتفاقهم على مفهوم واحد لنظرية الصرفة، يدل على أنها لم تصدر عن عقيدتهم في كلام الله، وفي خلق القرآن، لذا أميل إلى ما ذكره كل من البيروني، والبغدادي، والشهرستاني، من أقوال – ذكرت بعضها وسأذكر بعضها الآخر – تبين مصدرها الخارجي، وإن نشأت وترعرعت في بيئة الإعتزال.

ولأن رواج نظرية – الصرفة – ، يؤدي إلى أن القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله.

(١٥) د. أحمد أبو زيد: الإستدلال العقلي على إعجاز القرآن، ص٢٥٧.

المبحث الثالث
القائلون بالصرفة من المعتزلة

نبت القول بالصرفة أول ما نبت في رواق الفلسفة الكلامية، قاله شيخ من شيوخها وهو النظام: (ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري ت سنة ٢٢١هـ)، فهو أول من جاهر به، وأعلنه ودعا إليه، ولاحى عنه، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام، ونقول إنه أول من جهر به، ولا نقول إنه أول من فكر فيه، أو أول من ابتدأ القول به، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر، ويجاهر بها.[١٦]

تتلمذ على خاله أبي الهذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه، وكون مذهبا خاصا به، مات في ريعان شبابه عن ست وثلاثين عاما، وكان أستاذا – للجاحظ –[١٧]، ترجم له أبو منصورعبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٤هـ) – في كتابه: (الفرق بين الفرق)، عند ذكره الفرقة النظامية، فقال: (عاشر النظام في شبابه قوما من الثنوية[١٨] وقوما من السمنية[١٩]، وخالط قوما من ملاحدة الفلاسفة، ثم دون مذاهب الثنوية، وبدع الفلاسفة، وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه). ثم قال: (والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه – أي النظام – : أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي – عليه الصلاة والسلام – ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب،

(١٦) أبو زهرة: المعجزة الخالدة – ، ص ٧١.
(١٧) زهدي حسن جار الله: : – المعتزلة – ص١٢٠ – ١٢٩.
(١٨) الثنوية: قوم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان. الشهرستاني: الملل والنحل: ص/ ٨٠ بهامش الفصل.
(١٩) السمنية: فرقة بوذية هندية قالت بقدم العالم وبتناسخ الأرواح – . البغدادي: الفرق بين الفرق – ص٢٧٠. وخالد العلي، الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي ص١٣.

فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم، والتأليف)[٢٠] وترجم له الشهرستاني(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ) فقال: -

(والنظامية أصحاب ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام، طالع ابراهيم كثيرا من كتب الفلاسفة، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها: قوله في إعجاز القرآن: إنه من حيث إخباره عن الأمور الماضية، والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرا، وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة، وفصاحة، ونظما.)[٢١]

فالنظام - إذن - يرى: أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، أوعن القدرة على الإتيان بمثله، فانصرفوا عن ذلك، وتعذرت عليهم المعارضة، لا لأن القرآن في حد ذاته خارج عن طوق البشر، أو خارقا لمقدرتهم، ومألوف عادتهم، فهو في ذلك لا يتفوق على البليغ الفصيح من كلام العرب، ولا تكاد تكون له مزية أو فضل في ذلك، ولو ترك لهم المجال، وأفسح أمامهم الطريق، لأتوا بمثل القرآن فصاحة، وبلاغة، وحسن نظم وتأليف. وقد تابع - النظام - على رأيه هذا نفر من المعتزلة، منهم: عيسى بن صبح المكنى بأبي موسى المردار[٢٢]، الذي نسب إليه القول بأن: (الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبما هو أفصح منه.)[٢٣]، وعباد بن سليمان[٢٤]،

---

(٢٠) البغدادي: الفرق بين الفرق (مرجع سابق) ص ١٢٨ - ١٥٠ (بتصرف يسير).

(٢١) الشهرستاني: الملل والنحل - بهامش الفصل - : ج ١ / ص٦٧.

(٢٢) عيسى بن صبيح أبو موسى المردار: - كان معروفا بالناسك، أخذ الإعتزال عن بشر ابن المعتمر، تولى رئاسة المعتزلة ببغداد، (ت سنة ٢٢٦هـ). ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ٧٠.

(٢٣) البغدادي: الفرق بين الفرق - ص١٥٤وانظر د. عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، ص ٥٢ - ٦٥.

(٢٤) عباد بن سليمان الصخري: معتزلي من أهل البصرة من تلاميذ هشام بن عمروالفوطي كان معتزليا ثم تحول إلى مذهب الزنادقة. ابن النديم: الفهرست: ص٢٦٩، ٢٨٠.

وهشام الفوطي[٢٥] وأبي اسحق النصيبي[٢٦]وغيرهم. ولهذه الآراء الشاذة، والمعتقدات الباطلة، نص كثير من العلماء، – ومن المعتزلة أنفسهم – ، على تكفير النظام، وفرقته.

ومع أن مفهوم – الصرفة – نشأ في البيئة الاعتزالية بادئ بدء، إلا أن ذلك لا يعني أن مفهومها عندهم جميعا كان واحدا، بل كان لها ثلاثة مفاهيم، هي: –

١ – المفهوم النظامي للصرفة الذي ينفي عن القرآن الإعجاز، ويجعله في مستوى الكلام البليغ الذي استحسنته العرب، وحظي عندها، ولا فضل للقرآن في ذلك على غيره، وكان باستطاعة العرب الإتيان بمثله، لولا أنهم صرفوا مقهورين بقوة خارجة عنهم، لا طاقة لهم على دفعها. وهو رأي مرفوض لا يعتد به، ولا يؤبه له – كما سأبين – . وقد كانت رؤوس المعتزلة أول من رفضه، ورده، ولم يتابعه عليه إلا شرذمة قليلة منهم. يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) مفندا قول النظام، حيث قال مخاطبا أحمد بن أبي دؤاد[٢٧] (ت ٢٤٠ هـ): – (فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة.)[٢٨]، فواضح من هذا النص أن النظام لو كان يعترف ولو ضمنيا بأن نظم القرآن وتأليفه معجز، لكان الجاحظ أول من يعرف ذلك، ولما تصدى لنقض صرفة النظام وردها، وإذن فمفهوم الصرفة لدى النظام، وأصحابه، ليس مجرد شعور بالعجز، وانصراف تلقائي، وإنما مفهومها أن

---

(٢٥) هشام بن عمرو الفوطي: – بصري المذهب، عده القاضي في نهايةالطبقة السادسة من المعتزلة، وكان يحظى باحترام المأمون. القاضي المعتزلي: طبقات المعتزلة ص٦٩.

(٢٦) أبو اسحق النصيبي: – من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة، وكان يشك في النبوات كلها. أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة – ج١/ ص١٤١.

(٢٧) هو أحمد بن أبي دؤاد الملقب بأبي عبد الله القاضي، من الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة، توفي سنة ٢٤٠ هـ. القاضي المعتزلي: طبقات المعتزلة، ص٧٨.

(٢٨) الجاحظ: حجج النبوة – ص١٤٣ – ١٤٤.

الناس كانوا قادرين على مثل القرآن، لولا أن منعهم الله بمنع وعجز أحدثهما فيهم، لذلك لم يجد هذا المفهوم قبولا من الجاحظ، فاستنكره وتصدى لنقضه، ورده، واستنكره أيضا جمهور المسلمين، وردوا عليه ردودا منطقية مقنعة.

منها: ما رد به الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) حيث قال – : (قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليؤيد به النبوة، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، وإنما لم يعارضه العرب، لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب دواعيهم عن الاعتراض، ويدل على فساد ذلك وجوه ثلاثة: –

الأول: – لو أن الله صرفهم عن المعارضة، وأعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما استعظموا فصاحة القرآن، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه يجب أن يكون تعجبهم من تعذرمعارضة القرآن، بعد أن كانوا قادرين على المعارضة، وهذا يبطل ما قاله النظام.

الثاني: – أن كلامهم قبل التحدي لم يكن مقاربا لفصاحة القرآن، ولو كان كذلك، لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكن الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، مما يبطل هذه الدعوى.

الثالث: – ليس من المعقول أن ينسى العرب الفصحاء أساليبهم وصيغهم المعلومة في مدة يسيرة، لأن ذلك يدل على زوال العقل، ومعلوم أن العرب ما زالوا يحتفظون بعقولهم بعد التحدي، فبطل ما قاله النظام.)[٢٩]

٢ – المفهوم الثاني للصرفة: – الذي عرف في البيئة الاعتزالية، هو مفهوم – الجاحظ، والرماني – لها، وهو مفهوم لا يقدح في بلاغة القرآن، ولا ينكر تفوقه، بل هو يقر بهذا الإعجاز، ويعترف به، ويحس أن ما جاء به القرآن الكريم خارج عن طوق البشر ومقدورهم، فالصرفة عند الجاحظ ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية، جاءت لمصلحة المسلمين.[٣٠] حتى يحفظ القرآن من عبث العابثين، وتشكيك المشككين، الذين يمكنهم أن يخدعوا الناس،

---

(٢٩) الرازي: تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – ص ٢١

(٣٠) الجاحظ: الحيوان: – ج٤ ص٨٥ – ٨٩

ويزوروا أمامهم الحقائق، وقد صرف الله نفوس القوم عن معارضة القرآن، لا لأنهم قادرون على مثله والله منعهم من ذلك كما قال – النظام – ، ولكن لئلا يكون لأهل الشغب وضعاف الإيمان متعلق للطعن والتشكيك، وإفساد عقائد ذوي النفوس المريضة، يقول الجاحظ: (ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم بنظمه، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القضية على الأعراب، وأشباه الأعراب، والنساء، وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال)[٣١]. ويذكر الجاحظ هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من كتابه الحيوان، فيقول: – (وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا، ولا ملفقا، ولا مستكرها، إذ كان في ذلك لأهل الشغب متعلق)[٣٢].

ومن الواضح أن الصرفة عند الجاحظ بمفهومها هذا، لا ينفي عن القرآن روعته البلاغية، ودرجته العالية في سلم الفصاحة، والبيان، وقد أكد الجاحظ هذه الحقيقة أكثر من مرة، فذهب الى أن وجه الإعجاز في القرآن، إنما هوالنظم والتأليف، وأن القرآن الكريم بلغ القمة في روعة نظمه، والذروة العظمى من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم، وقال واصفا بيان القرآن: (وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة، وعبت كتابي في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه.)[٣٣]. فهناك فرق بين مفهومي النظام، والجاحظ للصرفة، فالنظام: يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع. أما الجاحظ: فلم يستعمل

(٣١) الجاحظ: الحيوان – ج٦ ص٢٩٦.
(٣٢) الجاحظ: الحيوان – ج٤/ ص٩٠.
(٣٣) الجاحظ: الحيوان – ج١ / ص ٩

الصرفة بمفهومها النظامي الذي سبق أن أنكره عليه، وإنما استعملها بمفهوم آخر، لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم. فانصراف العرب عن معارضة القرآن، إنما وقع بعد أن تحداهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بنظمه، وهي لذلك ليست تعني أن الله أحدث فيهم منعا، وعجزا، وإنما تعني أن له تعالى تدبيرا، حفظ به القرآن من شغب المعاندين، فصرف أوهامهم ونفوسهم، عن كل محاولة لمعارضة القرآن، لما قد يدخل بذلك من الشبه على ضعاف العقول، ولما قد ينشأ عنه من الفتنة.

ومما يدل على أن الجاحظ لم يكن يحس بأي تعارض بين الصرفة بهذا المفهوم وبين نظرية النظم، أنه جمع بين النظريتين في مكان واحد، فبعد أن انتهى من تقرير مبدأ الصرفة، قال: (وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به)[٣٤]. فكلام الجاحظ ينص على أن الذي أعجز العرب، هو نظم القرآن البديع، وأن النظم هو الذي تحداهم به الرسول – – صلى الله عليه وسلم – . أما حديثه عن صرف الله لهمم العرب عن محاولة محاكاته، فهو يبرز معنى فيه منة امتن الله بها على المسلمين، حين لم يتكلف بعض المتكلفين معارضة القرآن، ولو فعل ذلك بعضهم، فليس المخوف عندئذ أن يأتي بكلام من مثله، فذلك مستحيل بنص كلام الجاحظ السابق، ولكن المخوف هو أن يأتي بكلام ينخدع به بعض الضعفاء، ويتعلقون به، كما تعلق أصحاب مسيلمة بما ألفه لهم من هراء، وعندئذ يحدث ما يشوش على القرآن، عندما يوجد من يستجيد ما ادعي أنه معارضة له، فيدافع عنه، ويزعم أنه قد عارض، وقابل، وناقض، فيكثر القيل والقال، فكان هذا التدبير الإلهي، لئلا يكون لأهل الشغب متعلق يتعلقون به.[٣٥] فلم يكن إذن تناقض، أو اضطراب في رأي

---

(٣٤) للجاحظ: الحيوان، ج٤/ ص ٩٠.

(٣٥) د. عبد الغني محمد سعد بركة: الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره، ص ٦٢. والسيوطي: الإتقان ج٤ / ص ٦.

الجاحظ، في إعجاز القرآن – على حد قول الأستاذ نعيم الحمصي[٣٦]، أوالإمام مصطفى صادق الرافعي[٣٧] – بل هو في نظره رأي مستقيم، ونظرية سليمة[٣٨]، لأن علة العجز في نظره – أي الجاحظ – كائنة في نظام الكلام، ومخرجه من لفظه وطابعه، وأن العرب قد تبين لهم ذلك واستيقنوه، وأنهم عجزوا عجز من يعرف علة عجزه، وليس عجز المتحير المصروف.[٣٩]

والصرفة عند الرماني (أبو الحسن بن عيسى بن علي بن عبد الله ت ٣٨٤هـ): – تشبه الصرفة عند الجاحظ، فهي لا تقدح في بلاغة القرآن، وحسن تأليفه، فقد ذكر الرماني أن القرآن في أعلى مراتب البيان، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب، وبلاغييهم، فهو مقتنع بإعجاز البلاغة القرآنية، التي لولاها لجاءوا بمثله.

يقول الرماني: – (وأما الصرفة: فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز، التي يظهر منها للعقول.)[٤٠]

٣ – وأما المفهوم الثالث للصرفة عند المعتزلة، فهو: مفهوم القاضي عبد الجبار (قاضي القضاة أبوالحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني ت٤١٥هـ) وقد خالف فيه جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها، ولم يرض عن تفسيراتهم، فقد أبعد مفهوم الجبرية، الذي ساد في حديث – النظام – والجاحظ – والرماني – عنها، لأنها كانت عندهم جميعا، شيئا خارجا عن إرادة القوم، مجبورين عليها جبرا[٤١]. وقدم بين يدي ذلك أدلة منها: –

(٣٦) د. نعيم الحمصي: : تاريخ فكرة إعجاز القرآن، ص ٥٣.
(٣٧) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٦٤ – ١٦٥.
(٣٨) د. أحمد أبو زيد: المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص ٢٦٩.
(٣٩) د. محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص ٣٦٠.
(٤٠) الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص ١١٠.
(٤١) د. وليد قصاب: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص/ ٣٢٠.

(أولا: – لوكانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح، أو قول بليغ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم، لما أمكنهم الكلام المعتاد، ولكن القوم ظلوا يتكلمون، ويأتون بالقول الفني الممتاز، ولم ينحدر مستوى بيانهم، أو يهبط، ولكنه كان – على علوه – ، لا يرقى الى مستوى القرآن.

ثانيا: – ولو ثبت هذا المنع، لكان في حد ذاته هو المعجز، وليس القرآن، فإن من سلك هذا المسلك في القرآن، يلزمه أن لا يجعل له مزية ألبتة.

ثالثا: – ولو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره، لبطل بعض القرآن، ولما كان صحيحا قوله تعالى: – ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.[٤٢]

رابعا: – القول بالصرفة يتعارض مع الآية السابقة، لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء: إن بعضها يكون ظهيرا لبعض، لأن المعاونة، والمظاهرة،إنما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز، والمنع.)[٤٣]. وبعد أن قدم – القاضي عبد الجبار – هذه الأدلة التي نقض بها مفهوم من تقدموه عن – الصرفة – ، توصل القاضي الى مفهوم جديد للصرفة، وهو في هذه المرة يرتبط بالقوم أنفسهم، وليس شيئا خارجا عنهم، أو مفروضا عليهم فرضا، وهذا المفهوم هو: – (أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم بأنها غير ممكنة، على ما دللنا عليه، ولولا علمهم بذلك، لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة..)[٤٤]. فهي صرفة تشبه اليأس الذي يعتري الانسان من أمر ما حاوله عدة مرات، وكان يمنى كل مرة بالإخفاق الذريع، فإذا بعزيمته تتثبط، وهمته تنهار، وذلك كان شأن القوم مع القرآن، فلم يكن تركهم للمعارضة لأمر خارجي، وإنما لإحساسهم باليأس،

---

(٤٢) سورة الإسراء، آية / ٨٨

(٤٣) القاضي عبد الجبار: المغني ج ١٦/ ص٣٢٤.

(٤٤) المغني (مرجع سابق) ج١٦ / ص ٣٣٤.

وتيقنهم من العجز عن الإتيان بمثل القرآن، ثم ينهي – القاضي – حديثه عن مفهومه للصرفة، فيقول: – (فالصحيح ما قلناه، من أنهم علموا بالعادة تعذر مثله، فصار علمهم صرفا عن المعارضة.)(٤٥). فالصرفة بهذا المفهوم الجديد عند القاضي عبد الجبار، ليست تلك الصرفة التي عند النظام، أو الجاحظ، والتي تعني: القهر، والجبر، إنما هي صرفة ذاتية، فهم أدركوا بالفطرة، أن أسلوب القرآن في علوه وسموه، وروعة نظمه وبيانه، لا يمكن مجاراته، ومعارضته، فانصرفوا ذاتيا بلا قهر، أو جبر من قوة خارجية عن المعارضة، اقتناعا منهم ويقينا بالعجز، أي أن العقل فكر وجرب، ثم اقتنع بأن إدراكاته التي وصل إليها، تمنعه من الإتيان بمثل هذا القرآن، فالأمر في الحقيقة: انصراف، وليس صرفة.(٤٦)

(٤٥) المغني: (مرجع سابق) ج١٦ / ص ٣٢٥، والقاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، ٥٨٦ – ٥٨٩.

(٤٦) د. وليد قصاب: ، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، (مرجع سابق) ص ٣٢٠ – ٣٢٣. بتصرف.

المبحث الرابع

القائلون بالصرفة من أهل السنة

قد يستغرب كثيرمن الباحثين عندما يقرأ أن بعض كبار علماء أهل السنة يقولون بالصرفة بمفهوميها النظامي، أوالجاحظي، يقول الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ) أثناء حديثه عن أبي الحسن الأشعري: - (والقرآن عنده معجز من حيث البلاغة، والنظم، والفصاحة، إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة، فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع من المعتاد)[٤٧].

وقال الشيخ السفاريني: محمد بن أحمد (١١٨٩هـ): - (وفي شفاء أبي الفضل القاضي عياض بعض ميل للقول بالصرفة، فإنه قال: وذهب الشيخ أبو الحسن (الأشعري -) إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا، ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه.)[٤٨]

ومن علماء أهل السنة من يقول بالصرفة - على سبيل الفرض والاحتمال - : كالرازي، وابن كثير، ومنهم من عدها وجها من وجوه الإعجاز، مثل: - الاسفراييني، والراغب الأصفهاني، والماوردي، وابن حزم الأندلسي الظاهري، وإمام الحرمين، والغزالي.

ومنهم من تضاربت أقواله بين القول بالصرفة، أو نفيها، مثل: ابن تيمية، وابن القيم.

فالرازي (محمد بن عمر بن الحسين بن علي الملقب بفخر الدين

---

(٤٧) الشهرستاني: الملل والنحل، بهامش الفصل، ج١/ ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٤٨) محمد بن أحمد السفاريني: لوامع الأنوار البهية، ج١/ ص ١٧٥.

والملا علي القاري: شرح الشفاء ج١/ ص ٥٥٠

ت٦٠٦هـ) يقول بها مرة في السور القصار، منعا من المكابرة، والتهمة في الدين، ويطلق القول بها ثانية على عمومه بلا تحديد، ففي تفسيره (لآية التحدي) في سورة البقرة، يقول: - (الطريق الثاني، أن نقول: القرآن لا يخلو إما أن يقال: إنه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول: ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني: كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزا، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب)، فههنا أطلق القول، ولم يحدد ذلك بسورة معينة، ثم يقول بعد ذلك: - (فإن قيل: قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وسورة (قل يا أيها الكافرون)، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين، قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، وإن لم يكن الأمر كذلك، كان امتناعهم عن المعارضة - مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره - معجزا، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز.)[٤٩]. بينما يقول في مقدمة كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز): (والدليل على كون القرآن معجزا: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعا العرب وتحداهم إلى معارضته، ولكنهم عجزوا عن ذلك، ولولا عجزهم، ما تركوا المعارضة، ليعرضوا أنفسهم لأطراف الأسنة، ويقتحموا موارد الموت، ولما آثروا القتال على الكلام.)[٥٠]

ويراها ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ابن كثير ت ٧٧٤هـ)

---

(٤٩) الرازي: مفاتيح الغيب،ج١/ ص ١١٦ - ١١٧، ومحسن عبد الحميد: الرازي مفسرا، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٥٠) الرازي: - تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ٢١.
ومفاتيح الغيب: ج١٧/ ص١٩٥.

صالحة على سبيل التنزل، والمجادلة، والمنافحة عن الحق، فقال في تفسيره: (وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة، وقول المعتزلة في الصرفة، فقال: إن كان القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله، لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة - وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا - إلا أنها تصلح على سبيل التنزل، والمجادلة، والمنافحة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار، كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر.)(٥١)

أما أبو اسحاق الاسفراييني (ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ت ٤١٨هـ) فقد عدها وجها من وجوه الإعجاز، قال في شرح المواقف - أثناء حديثه عن وجوه إعجاز القرآن -: (وقيل: إعجازه بالصرفة، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته، واختلف في كيفية الصرف، (فقال الأستاذ) أبو اسحاق منا، (والنظام) من المعتزلة، (صرفهم الله عنها مع قدرتهم) عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها، مع كونهم مجبولين عليها، خصوصا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز، والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزا.)(٥٢)

وعدها الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد ت ٤٢٥هـ) كذلك وجها من وجوه الإعجاز، فقال: - (اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين، أحدهما: إعجاز يتعلق بنفسه، والثاني: بصرف الناس عن معارضته، إلى أن يقول: فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة، الذين يهيمون في كل واد من المعاني - بسلاطة لسانهم

---

(٥١) ، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١/ ص٦٠.
(٥٢) القاضي عضد الدين الإيجي: شرح المواقف ج٨ / ص ٢٤٦.

– إلى معارضة القرآن، وعجزوا عن الإتيان بمثله، ولم يقصدوا لمعارضته، فلم يخف على ذوي البلاغة أن صارفا إلهيا صرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا في الظاهر عن معارضة مصروفة في الباطن عنها.)(٥٣)

وقال في جامع التفاسير: – (فلما رئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته، لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك، وما أليقهم بإنشاد أبي تمام:

فإن نك أهملنا فأضعف بسعينا وإن نك أجبرنا ففيم نتعتع.

والله ولي التوفيق والعصمة.)(٥٤)

وقال الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ) بالصرفة: –

فبعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن في كتابه – أعلام النبوة – قال: (الوجه العشرون من أوجه إعجازه: الصرفة عن معارضته، واختلف من قال بها: هل صرفوا عن القدرة على معارضته مع دخوله في مقدورهم..؟ على قولين:

أحدهما: – إنهم صرفوا عن القدرة، ولو قدروا لعارضوا.

والقول الثاني: – إنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم.

والصرفة إعجاز على القولين معا، في قول من نفاها ومن أثبتها، فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة، ثم يقول: فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه

---

(٥٣) السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج١/ ص ٥ – ٦. والإتقان في علوم القرآن ج٤/ ص١٠ – ١٢. والراغب الأصفهاني: : مفردات ألفاظ القرآن، ص٧ – ١٥.

(٥٤) الراغب الأصفهاني: مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ص ١٠٩. وانظر علوم القرآن عند المفسرين، ج٢/ ص٤٠٢ – ٤٠٣.

كلها، صح أن يكون كل واحد منها معجزا، فإذا جمع القرآن سائرها كان إعجازه أقهر، وحجاجه أظهر، وصار كفلق البحر، واحياء الموتى، لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله)(٥٥)

وقال في تفسيره النكت والعيون: – (فأما إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه، إلى أن يقول: والثامن: أن إعجازه هو الصرفة، وهو أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته، مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم تحركهم أنفة التحدي، فصبروا على نقص العجز، فلم يعارضوه، وهم فصحاء العرب، مع توفر دواعيهم على إبطاله، وبذل نفوسهم في قتاله، فصار بذلك معجزا لخروجه عن العادة كخروج سائر المعجزات عنها. واختلف من قال بهذه الصرفة على وجهين:

أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرضوا لعجزوا عنه.

والثاني: – أنهم صرفوا عن التعرض له، مع كونه في قدرتهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه. فهذه ثمانية أوجه، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازا، فإذا جمعها القرآن، وليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزا بأولى من غيره، صار إعجازه من الأوجه الثمانية، فكان أبلغ في الإعجاز، وأبدع في الفصاحة والإيجاز)(٥٦)

ومن القائلين بالصرفة ابن حزم الظاهري (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت ٤٥٦هـ): – ومما قاله في الفصل في الملل والأهواء والنحل:–

(والنحو الرابع: ما وجه إعجازه..؟ فقالت طائفة: وجه إعجازه كونه في أعلى مراتب البلاغة، وقالت طوائف: – إنما وجه إعجازه أن الله منع الخلق من

---

(٥٥) الماوردي: أعلام النبوة – ص ٨٥ – ٨٦.

(٥٦) الماوردي: تفسير النكت والعيون، ج١/ ص ٣٠ – ٣١،

القدرة على معارضته فقط، فأما الطائفة التي قالت: إنما إعجازه لأنه في أعلى درج البلاغة، فإنهم شغبوا في ذلك، بأن ذكروا آيات منه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾(٥٧) ونحو هذا، ومّوه بعضهم بأن قال: لو كان كما تقولون من أن الله تعالى منع من معارضته فقط، لوجب أن يكون أغث ما يمكن أن يكون من الكلام، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ). وبعد رده على هذين الدليلين قال: (فلا بد لهم من هذه الخطة، أو من المصير إلى قولنا: إن الله منع من معارضته فقط).

وقال: (فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلا، وأن الله منع الناس من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق)، ثم قال في آخر كلامه: - [والحق من هذا هو ما قاله الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ...﴾(٥٨) وأن كل كلمة قائمة المعنى، يعلم إذا تليت أنها من القرآن، فإنها معجزة، لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك](٥٩).

ولو تأملنا قول ابن حزم السابق (منع الناس عن مثله وكساه الإعجاز) نجده كلاما فيه تناقض؛ لأنه لا معنى لأن يكسوه الله الإعجاز، إذا كان عجز البشر عنه منعا منه سبحانه، وما دام الوجه هو منع الناس، فلا يوصف النظم بالإعجاز، لأن المعجز هو منع الناس عن الإتيان بمثله، فالمنع يخلع صفة الإعجاز عن النظم، وينقلها إلى المنع.

وقال بها كذلك: إمام الحرمين (أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ت٤٧٨هـ)، فبعد أن قرر في كتابه - الإرشاد(٦٠) - أن وجه الإعجاز في القرآن

---

(٥٧) سورة البقرة / آية ١٧٩.

(٥٨) سورة الإسراء، آية / ٨٨.

(٥٩) ابن حزم: الفصل، ج٣/ ص١٧ - ٢١. وانظر د. مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن، ص ٦٣.

(٦٠) الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد، ص ٣٤٩.

هو (اجتماع الجزالة مع الأسلوب، والنظم المخالف لأساليب كلام العرب، فلا يستقل النظم بالإعجاز على التجريد، ولا تستقل الجزالة أيضا، ثم الإخبارعن الغيوب الماضية والمستقبلية)، يتراجع في (العقيدة النظامية)[٦١] ويناقض رأيه معلنا: أن وجه الإعجاز هو: الصرفة فقال: (وقد أكثر الناس في وجه إعجاز القرآن، وتقطعوا فيه أيادي سبأ، وصار معظم الناس إلى أن القرآن تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة، خارج عن المعتاد في ذلك، ثم زعم زاعمون: أن إعجازه في شرف جزالته، وذهب آخرون: إلى أن إعجازه في الجزالة الفائقة، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر، والخطب، والأراجيز، ثم يقول: – من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات، مجاوز لفصاحة اللدد البلغاءواللسن الفصحاء، فقد حاد عن مدرك الحق)، ثم يقرر الجويني: أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن كان بسبب الصرفة، فيقول: – (فتبين قطعا أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم، وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها، ومن هدي إلى هذا المسلك فقد رشد إلى الحق المنير، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا.

إلى أن يقول: فإذا لم تجر المعارضة، لم يبق لامتناعها، مع توفر الدواعي عليها محمل إلا صرف الله الخلق، فكيف يهتدي إلى إعجاز القرآن، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة، وشفاء الصدور في الحكم ؟ فإن مثله من مقدورات الخلق، ولكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم)[٦٢]

وعدها الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ): – وجها من وجوه الإعجاز، فقال في كتابه – الاقتصاد في الإعتقاد: (فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا: الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب، والمنهاج الخارج عن مناهج

---

(٦١) ألفه الجويني بعد كتابه الارشاد، كما ذكر محققا الارشاد (محمد يوسف موسى، وزميله) انظر المقدمة: ص / س.

(٦٢) الجويني: العقيدة النظامية في الأركان الاسلامية – ص ٧٢ – ٧٣ (باختصار يسير)

كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر، نعم، ربما يرى للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه من القرآن، ولكن من غير جزالة، بل مع ركاكة، كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل وما أدراك ما الفيل.. الخ، فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه، مع ركاكة يستغثها الفصحاء، ويستهزئون بها، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافة العرب منها العجب، ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في فصاحته، فهذا إذن معجز وخارج عن مقدور البشر من هذين الوجهين، أعني من اجتماع هذين الوجهين.

فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن، ولو قصدت لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به، والجواب: - إن ما ذكروه هوس، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف، مهما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي، وشن الغارات، ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات.)[٦٣]

وهنا أقول مع شيخ مشايخنا، محمد عبد العظيم الزرقاني: - (إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي، حين ينسب إلى نفر من علماء المسلمين، الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن. على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال، وها قد طاش هذا الرأي في الميزان - كما سنبين - ، فلنرده على قائله أيا كان.

وليس كل خلاف جاء معتبرا ... إلا خلاف له حظ من النظر)[٦٤]

---

(٦٣) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٢٩ - ١٣٠.

(٦٤) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢/ ص ٣١٥. بتصرف يسير.

المبحث الخامس

القائلون بالصرفة من الشيعة الإمامية الاثنى عشرية

قال بها الشيخ المفيد في كتابه أوائل المقالات، وإن حكي عنه غيره، وقال بها الشريف المرتضى في رسالة خاصة له، تحت عنوان: (الموضح عن جهة إعجاز القرآن)، والشيخ الطوسي: في شرحه لجمل (الشريف المرتضى)، وإن رجع عنه في كتابه (الاقتصاد)، وقال بها كذلك ابن سنان الخفاجي.

قال الشيخ المفيد (محمد بن محمد النعمان البغدادي ت٣٣٨هـ) في وجه إعجاز القرآن: - (إن جهة ذلك: هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي - صلى الله عليه وسلم - بمثله في النظام، عند تحديه لهم، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله - وإن كان في مقدورهم - دليلا على نبوته، واللطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان، وهذا أوضح برهان في الإعجاز، وأعجب بيان، وهو مذهب - - النظام - وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال)[٦٥].

هذا وقد نقل المجلسي في: - بحار الأنوار - قولا آخر للشيخ المفيد في بيان وجوه إعجاز القرآن، جاء فيه: - (ما ذهب إليه الشيخ المفيد، وهو أنه إنما كان معجزا من حيث اختص برتبة في الفصاحة خارقة للعادة، قال: - لأن مراتب الفصاحة إنما تتفاوت بحسب العلوم التي يفعلها الله في العباد، فلا يمنع أن يجري الله العادة بقدر من العلوم، فيقع التمكن بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية، ويكون ما زاد على ذلك غير معتادة، معجزا خارقا للعادة)[٦٦].

وقال بها كذلك - الشريف المرتضى: (علي بن الحسين بن موسى بن محمد ت٣٥٥هـ): - فقد نقل عنه الطوسي قوله: - (إن الله سلب العرب العلوم

---

(٦٥) جعفر السبحاني: الإلهيات، ص ٣٤١، نقلا عن أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ٣١

(٦٦) الإلهيات: (مرجع سابق) ص ٣٤١، نقلا عن بحار الأنوار للمجلسي ج٩٢/ ص ١٣٧.

التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن، متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم)[٦٧]

ومؤدى كلامه: أن العرب أوتوا القدرة على معارضة القرآن، والإتيان بمثله، بما كانوا عليه من بيان، وبلاغة، وفصاحة، ولكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله، لأنهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن.

وقال الطوسي (نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن ت ٣٨٥هـ) بالصرفة: في كتابه: (تمهيد الأصول في علم الكلام) – وهو شرح على كتاب: (جمل العلم والعمل) للمرتضى – ثم تراجع عنه بعد ذلك في كتابه – الاقتصاد – فقال: –

(وأقوى الأقوال عندي، قول من قال: إنما كان معجزا خارقا للعادة، لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون الصرفة، وإن كنت نصرت في شرح الجمل القول بالصرفة، على ما كان يذهب اليه المرتضى – رحمه الله – ، من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه)[٦٨].

وقال بها كذلك ابن سنان (عبد الله محمد بن سعيد الخفاجي ت٤٦٦هـ) في كتابه – سر الفصاحة – ، يقول ابن سنان: (إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن: صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة، وقت مرامهم ذلك، ثم يقول: – إن الصحيح أن إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وإن فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف. وقال في موضع آخر: – متى رجع الانسان الى نفسه، وكان معه أدنى

---

(٦٧) الإلهيات: (مرجع سابق) – ص٣٤١، نقلا عن الاقتصاد للشيخ الطوسي ص ١٧٢ وانظر لوامع الأنوار البهية (مرجع سابق)، ج١/ ص١٧٤. وشرح المصطلحات الكلامية، ص / ١٨٧، إعداد قسم الكلام، في مجمع البحوث الإسلامية. وشرح المواقف (مرجع سابق) ج٨/ ص ٢٤٦.

(٦٨) المرجع السابق نفسه ونفس الصفحة. وانظر فكرة إعجاز القرآن (مرجع سابق) ص ١٠٩.

معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه...!!)[٦٩].

وهذا رأي عجيب من ابن سنان، لأنه على ما يبدو، إنما ألف كتابه – سر الفصاحة – ليبين أن أسرار إعجاز القرآن تكمن في فصاحته، فكيف استطاع أن يوفق بين قوله بأن إعجاز القرآن يكمن في فصاحته، وبين قوله بالصرفة..؟ أم أنه كما يقول الدكتور محمد محمد أبو موسى: (وكان الأمير الخفاجي – رحمه الله وأثابه – قليل التدقيق والتروي، وفي كتابه تجاوزات كثيرة. مرجعها غالبا إلى واحد من أمرين: السرعة المؤدية إلى عدم إحكام مقالة أهل العلم، أو ضعف سليقة الرجل، وإحساسه بالفروق بين طبقات الكلام، وهذا لا يدفع أن الرجل قد هدي إلى كثير من الدقائق..)[٧٠]

(٦٩) ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص ٨٩، ٢١٧

(٧٠) د. محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي (مرجع سابق) ص/ ٣٧٠ – ٣٧١. وانظر د. أحمد سيد محمد عمار: نظرية الإعجاز القرآني، وأثرها في النقد العربي القديم، ص ٤٢ وما بعدها. (بتصرف) ط١، ١٩٩٨م، دارالفكر، دمشق.

المبحث السادس

بطلان القول بالصرفة

مما سبق تبين لنا أن الصرفة نشأت في بيئة المعتزلة على يد – النظام – ومن تابعه، واعتبروها وجها من وجوه إعجاز القرآن، – مع اختلافهم على مفهومها – ، وقال بها كذلك طائفة من علماء أهل السنة، والظاهرية، والشيعة الامامية، مع عدم موافقة بعضهم على مفهوم – النظام – لها، ويمكننا أن نتعرف من أقوال القائلين بالصرفة على المفاهيم التالية: –

المفهوم الأول: مفهوم النظام ومن تابعه، فقد ذهبوا إلى أن العرب صرفوا عن المعارضة جبرا، ولم يتوجهوا إليها، ولو توجهوا لاستطاعوا الإتيان بمثل القرآن، وهذا المذهب ينفي عن القرآن الإعجاز.

والمفهوم الثاني: قال به الشريف المرتضى، وابن سنان الخفاجي، ومن تابعهما، فقد ذهبوا إلى أن الله سلب من العرب علومهم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن، والإتيان بمثله، ولو توجهوا لمعارضته، لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

المفهوم الثالث: وهو مفهوم الجاحظ، والرماني لها، وهولا يقدح في إعجاز القرآن، بل هو ضرب من التدبير الإلهي، فصرف نفوس العرب وأوهامهم عن معارضة القرآن، ليحفظه من عبث العابثين.

المفهوم الرابع: – وهو ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار، حيث رفض المفاهيم السابقة للصرفة، واعتبر أن الصرفة مرتبطة بالقوم أنفسهم، وليست شيئا خارجا عنهم، أو مفروضة عليهم فرضا، بل إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم أنها غير ممكنة، فهي في الواقع انصراف، وليست صرفة.

وقد تصدى نفر من العلماء لهذه المفاهيم جميعها، وقاموا بردها وتفنيدها بأدلة منها: –

١ – قال الخطابي: (أبو سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم ت٣٨٨هـ): –

إن قوما ذهبوا الى أن العلة في إعجازه - أي القرآن - الصرفة، أى صرف الهمم عن المعارضة، ولم يرتض الخطابي ذلك، بل رد عليهم بقوله: (إن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٧١)، فأشار سبحانه في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها، لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها.)(٧٢)

٢ - رد الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ت ٤٠٣هـ) الصرفة بردود منها: -

أولا: - لو كان الأمر على ما ذهبوا اليه، وكان الإعجاز بالصرفة حقا، لكان الأقوى في الحجة، والأبين في الدلالة، أن يجيء القرآن في أدنى درجات البلاغة، لأن ذلك أبلغ في الأعجوبة، فإن الذي يعجز عن كلام هو في مستوى كلام الناس أو أدنى منه، يكون ذلك دليلاعلى أن هناك قوة غلابة، حالت بينه وبين المعارضة، ولم يكن هناك حاجة لمجيء القرآن الكريم في نظم بديع، ومستوى رفيع عجيب، لأن الأقرب إلى قوة الدليل، ووضوح الحجة - حين تكون الصرفة هي الوجه للإعجاز - أن يكون القرآن في مستوى كلامهم، أو دونه.

ثانيا: - إننا لوسلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان

ثالثا: - إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن

---

(٧١) سورة الاسراء / آية ٨٨.

(٧٢) الخطابي: في بيان اعجاز القرآن، ص ٢٣ - ٢٤.

الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره.)[٧٣].

٣ - أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر بن عبد الرحمن ت ٤٧١هـ) فصلا كاملا في رسالته - الشافية - (في الذي يلزم القائلين بالصرفة)، أبطل فيه مذهبهم، بردود كافية شافية.

منها: - (أنه يلزم على ادعائهم هذا، أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها، - من بعد أن أوحي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وتحدوا إلى المعارضة - قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وإذا كان الأمر كذلك، وأنهم منعوا منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها، لزمهم أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، ولو عرفوا لجاء عنهم ذكره، ولكانوا قد قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إنا كنا نستطيع هذا قبل الذي جئتنا به، ولكنك سحرتنا، واحتلت علينا في شيء حال بيننا وبينه، وكان أقل ما يجب عليهم في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوا البعض إلى البعض، ويقولوا: ما لنا نقصنا في قرائحنا..؟ وإذا كان ذلك لم يرد، ولم يذكر إن كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، فهذا دليل على أنه قول فاسد، ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل.

ومنها: - الأخبار التي جاءت عن العرب في شأن تعظيم القرآن، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو: - (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر) فمحال أن يعظموه وأن يبهتوا عند سماعه، ويستكينوا له، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون مايوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم، لأنهم لا يستطيعون مثله، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة، والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه، بل الواجب في مثل هذه الحال أن

---

(٧٣) الباقلاني: إعجاز القرآن، ص ٤٢.

يقولوا: - إن كنا لا يتهيأ لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت، وكيف شئت، بما لا يقصر عنه.

وخلاصة القول: - إن دليل النبوة عند القائلين بالصرفة، إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن، لا في نفس النظم، ولو كان ذلك صحيحا، لكان ينبغي إذا تعجب متعجب، أن يقصد بتعجبه إلى المنع من شيء كان يستطيعه، لا أن يقصد بتعجبه وإكباره الى الممنوع وهو القرآن الكريم، وهذا واضح لا يشكل.)[٧٤]

٤ - رد الحاكم الجشمي (أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي ت ٤٩٤هـ) - الزيدي المذهب،المعتزلي العقيدة - الصرفة، وأبان عن فسادها بقوله: - (وقول من يقول بالصرفة لا يصح لوجوه، منها: أن القوم في أيامه لم يكونوا ممنوعين من الكلام، فإن أراد صرفهم عن العلم الذي معه يتأتى مثله، فهو الذي نقول، وإن أراد صرفهم - وتلك العلوم قائمة والدواعي إلى المعارضة متوافرة - فذلك يستحيل، وإن قال يصرفهم عن الدواعي، فقد بينا ثبوت الدواعي فيهم. وبعد، فلو كان الإعجاز الصرفة، لكان أدون في الفصاحة آكد في الإعجاز، ولكنه كان لا يصح التحدي به)[٧٥]

٥ - رد ابن عطية: (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٦هـ) القول بالصرفة فقال: - (ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه.

---

(٧٤) جرجاني: - عبد القاهر، الرسالة الشافية ص ١٤٦ - ١٥٤، بتصرف.
(٧٥) د. عدنان زرزور: الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، ص ٤٤٦.

والصحيح: أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة، أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لايزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر بعده، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال فيها بعد ذلك مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد. إلى أن يقول: فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب: أنه لما جاء محمد – صلى الله عليه وسلم – به وقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(٧٦)، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأمله وتدبره، ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: والله ما هو بالشعر، ولا هو بالكهانة، ولا بالجنون، وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله، فصح عنده أنه من عند الله، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره، ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم، عجزا عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي الأرض قليل من العرب يعلن كفره.)(٧٧)

٥ – قالَ أبو حيان (أبو علي محمد بن يوسف بن علي الأندلسي ت ٦٥٤هـ): (اختلفوا فيما به إعجاز القرآن، فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوغل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ولا داخلة تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنه من نمط كلام العرب، وأن مثله مقدور لمنشئ الخطب، فإعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته، ومناضلته، وإن كانوا قادرين على مماثلته. والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف،

---

(٧٦) سورة البقرة، آية / ٢٣.

(٧٧) ابن عطية: المحرر الوجيز، ج١/ ص ٧١ – ٧٣، و القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – ، ج١/ ص٥١.

هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء، حين رأت زوجها يطأ جارية، فعاتبته، فأخبر أنه ما وطئها، فقالت له: إن كنت صادقا فاقرأ شيئا من القرآن، فأنشدها بيت شعر ذكر الله فيه ورسوله وكتابه فصدقته، فلم ترزق من الرزق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق.)[٧٨]

٧ - إجماع الأمة قبل ظهور القول بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتي، وقد حكى الإمام القرطبي: (محمد بن أحمد ت٦٨٤هـ) الإجماع في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) فقال بعد أن ذكر قول القائلين بالصرفة: (وهذا فاسد، لأن الإجماع قبل حدوث المخالف: أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن كذلك مألوفا معتادا منهم، دل على أن المنع والصرفة، لم يكن معجزا.)[٧٩]

٨ - تحدث العلوي: (يحيى بن حمزة ت ٧٤٩هـ) عن الصرفة كذلك وردها، بعد أن بين أن لها تفسيرات ثلاثة، فقال: -

(التفسير الأول: - أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالإنقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: - أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن، ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين،

---

(٧٨) أبو حيان: البحر المحيط ج١/ ص ٨ - ٩.

(٧٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن،ج١/ ص٧٥. وانظر: د. عبد الفتاح محمد سلامة: قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين، ص ١٥٤.

أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم، ومحاها عنهم.

وثانيها أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: - أن يراد بالصرفة: أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة - مع كونهم قادرين - ، وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة.

وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه، والذي غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة، ما يرون من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لا يقصر عن معارضته، خلا ما عرض من منع الله إياهم بما ذكرنا من الموانع، والذي يدل على بطلان هذه المقالة براهين: -

البرهان الأول منها: أنه لو كان الأمر كما زعموه، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن يميزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجب، ولو تذاكروا لظهر وانتشر على حد التواتر، فلما لم يكن ذلك، دل على بطلان مذاهبهم في الصرفة.

البرهان الثاني: لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة - كما زعموه - ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته، وحسن فصاحته - كما أثر عن الوليد بن المغيرة - حيث قال: إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمعذق، وإن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، فإن من المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه، فإنه يدهش عقله، ويحير لبه، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة،

وحكاية كل قصة، فلو كان ما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دل على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أن الله تعالى أنساهم هذه الصيغ، فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولا شك أن نسيان الأمور المعلومة في مدة يسيرة، يدل على نقصان العقل، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئا من تلك اللغة، لكان دليلا على فساد عقله وتغيره، والمعلوم من حال العرب، أن عقولهم ما زالت بعد التحدي بالقرآن، وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ما عول عليه أهل الصرفة.)(٨٠)

٩ – رد الشريف الجرجاني (السيد علي بن محمد ت ٨١٢هـ) شبه القادحين في إعجاز القرآن فقال: – (وأما القول بالصرفة فلوجوه، الأول: الاجماع قبل هؤلاء) القائلين بها (على أن القرآن معجز، و)على هذا القول يكون المعجز هو الصرف لا القرآن، ألا ترى أنه (لو قال: أنا أقوم وأنتم لا تقدرون عليه، وكان كذلك، لم يكن قيامه معجزا، بل عجزهم عن القيام)، فهذه المقالة خارقة لإجماع المسلمين السابقين على أن القرآن معجزة لرسول الله دالة على صدقه.

(الثاني): إنهم (لو سلبوا القدرة) – كما قال به الشريف المرتضى – لعلموا ذلك من أنفسهم، و (لتناطقوا به عادة ولتواتر) عنهم (ذلك) التناطق، لجريان العادة بالتحدث بخوارق العادات، لكنه لم يتواتر قطعا، (فإن قيل: إنما لم يتذاكروه) ولم يظهروه (لئلا يصير حجة عليهم)، ملجئة لهم إلى الإنقياد مع أنهم كانوا حراصا على إبطال حجته، وانتكاس دعوته، فلا يتصور منهم حينئذ إظهار ما علموه من أنفسهم، (قلنا: إن كان ذلك)، أي سلب القدرة عنهم (موجبا

---

(٨٠) يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، المجلد ٣/ ص ٣٩١ – ٣٩٥. (باختصار).

لتصديقه) إيجابا قطعيا، (امتنع عادة تواطؤ الخلق الكثير على مكابرته)، والإعراض بالكلية عن مقتضاه، (وإن لم يكن موجبا لتصديقه بل احتمل السحر وغيره) كفعل الجن (مثلا لتناطقوا به، وحملوه عليه)، وقالوا: قد سلب عنا قدرتنا، إما بالسحر، وإما بغيره، فلا يلزمهم بإظهاره صيرورته حجة عليهم.

(الثالث): إنه لا يتصور الإعجاز بالصرفة، وذلك لأنهم (كانوا) حينئذ (يعارضونه بما اعتيد منهم) من مثل القرآن الصادر عنهم (قبل التحدي به)، بل قبل نزوله، (فإنهم لم يتحدوا بإنشاء مثله بل بالإتيان به) فلهم بعد الصرفة الواقعة بعد التحدي، أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل الصرفة](٨١)

١٠ – قرر السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ) بطلان مذهب الصرفة، فقال: : (زعم النظام أن إعجازه بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد بدليل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٨٢) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة، لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة إعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ؟ وأيضا فيلزم من القول بالصرفة: زوال إعجازه بزوال زمن التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة: أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن.)(٨٣)

---

(٨١) شرح المواقف: (مرجع سابق) ج٨/ ص ٢٤٩. (ما بين القوسين من كلام الإيجي، وما عداه فهو للشريف الجرجاني)
(٨٢) سورة الإسراء، آية / ٨٨.
(٨٣) السيوطي: الإتقان (مرجع سابق)، ج٤/ ص٦ – ٧..

١١ - قال الآلوسي: (أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ) - بعد أن ذكر بعض وجوه إعجاز القرآن - : (قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرايني، والنظام، إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة، واعترض بأربعة أوجه: -

الأول: - أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة، لا القرآن، وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل.

الثاني: أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له، والمعتاد لكل ليس هوالكلام الفصيح بل خلافه، فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك.

الثالث: أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتادا من قبل لتحقق الصرفة من بعد، فتجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها.

الرابع: وهوخاص بمذهب المرتضى، أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتناطقوا به، ولو تناطقوا لشاع، إذ العادة جارية بالتحدث بالخوارق، فحيث لم يكن، دل على فساد الصرفة بهذا الاعتبار. واستدل بعضهم على فساد القول بها بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[٨٤] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنه بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.. إلى أن يقول: وأبعد الأقوال عندي كونه بالصرفة المحضة، حتى أن قول المرتضى فيها غير مرتضى، كما لا يخفى على من أنصفه ذهنه، واتسع عطنه.)[٨٥]

---

(٨٤) سورة الإسراء: آية / ٨٨.

(٨٥) الآلوسي: روح المعاني، ج١/ ص ٢٧ - ٣٣.

١٢ – قال السيد أبو القاسم الخوئي: (ت ١٤١٣هـ) – من علماء الشيعة الإمامية – : بعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن، وتحدث عن بعض الأوهام حول إعجاز القرآن وقام بتفنيدها، قال: (قالوا إن العارف باللغة العربية، قادر على أن يأتي بمثل كلمة من كلمات القرآن، وإذا أمكنه ذلك أمكنه أن يأتي بمثل القرآن، لأن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

الجواب: إن هذه الشبهة لا تليق بالذكر، فإن القدرة على الإتيان بمثل كلمة من كلمات القرآن، بل على الإتيان بمثل جملة من جملاته، لا تقتضي القدرة على الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة من سوره، فإن القدرة على المادة، لا تستلزم القدرة على التركيب، ولهذا لا يصح لنا أن نقول: إن كل فرد من أفراد البشر قادر على بناء القصور الفخمة، لأنه قادر على وضع آجرة في البناء، أو نقول: إن كل عربي قادر على إنشاء الخطب والقصائد، لأنه قادر على أن يتكلم بكل كلمة من كلماتها ومفرداتها، وكأن هذه الشبهة هي التي دعت (النظام) وأصحابه، إلى القول بأن إعجاز القرآن بالصرفة، وهذا القول في غاية الضعف:

أولا: لأن الصرفة التي يقولون بها، إن كان معناها: أن الله قادر على أن يقدر بشرا على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر، ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح، ولكنه لا يختص بالقرآن، بل هو جار في جميع المعجزات.

وإن كان معناها: أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن، ولكن الله صرفهم عن معارضته، فهو واضح البطلان، لأن كثيرا من الناس تصدوا لمعارضة القرآن، فلم يستطيعوا ذلك، واعترفوا بالعجز.

ثانيا: لأنه لو كان إعجاز القرآن بالصرفة، لوجد في كلام العرب السابقين مثله، قبل أن يتحدى النبي البشر، ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر، لكثرة الدواعي إلى نقله، وإذ لم يوجد ولم ينقل، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازا إلهيا، خارجا عن طاقة البشر.)[٨٦]

---

(٨٦) علوم القرآن عند المفسرين، مركز الثقافة والمعارف القرآنية التابع لمكتب الإعلام الإسلامي – إيران.. ج٢/ ص ٥٤٢ – ٥٤٣، نقلا عن تفسير البيان ج١/ ص ٥١ – ١١٤.

١٣ – قال الزرقاني (محمد عبد العظيم): تحت عنوان شبهة القول بالصرفة: – (ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة، أي: صرف الله العرب عن معارضته، على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية، وضربوا لذلك مثلا، فقالوا: إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الإختيارية، ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته، وثبط عزيمته، وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه، فعطل آلاته ووسائله، وعاق قدرته قهرا عنه، على رغم انبعاث همته نحوه، وتوجه إرادته إليه، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة، بل لواحد من ثلاثة:

أولها: أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم.

ثانيها: أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة، فلم تتعلق بها إرادتهم، ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي.

ثالثها: أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرتهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها.

بهذا التوجيه أو نحوه، يعزى القول بالصرفة إلى: أبي اسحق الاسفراييني من أهل السنة، والنظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة. وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها، أو التمست لهم، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجئ من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم، بل جاءت على الفرضين الأولين، من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وجاءت على الفرض الأخير، من ناحية عجزهم عنها بسبب خارجي عن القرآن، وهووجود مانع منعهم منها قهرا، ذلك المانع هو: حماية الله لهذا الكتاب، وحفظه إياه من معارضة المعارضين، وإبطال المبطلين. ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله، لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه.

وبعد أن ذكر الزرقاني شبه القائلين بالصرفة، أخذ في تفنيد شبههم فقال: وهذا القول بفروضه التي افترضوها، أو بشبهاته التي تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع.

أما الفرض الأول: فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة، ودوافعها كانت ماثلة متآخذة، وذلك لأدلة كثيرة:

منها: أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه، ثم سجل العجز عليهم، وقال بلغة واثقة: إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا، ولن يفعلوا، ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا، ولو كانوا أجبن خلق الله.؟

ومنها: أن صناعتهم البيان، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة.؟

ومنها: أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم، وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا..؟ ما دامت المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا.

وأما الفرض الثاني: فينقضه الواقع التاريخي أيضا، ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم، ونالت منالها من عزائمهم، فهبوا هبة رجل واحد، يحاولون القضاء على دعوة القرآن، بمختلف الوسائل، فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه. لقد آذوه، وآذوا أصحابه، فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا. ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون، ولا يتزوجون منهم، ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر. ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية، منها: أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمرا دونه، وأن

يتوجوه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن. كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به. ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم، فيعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فأبى أيضا.

ولقد اتهموه - صلى الله عليه وسلم - بالسحر، وأخرى بالشعر، وثالثة بالجنون، ورابعة بالكهانة، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم، فيبهتونه، ويكذبونه أمام من لا يعرفونه، ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم. ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم، وأمره بالهجرة من بينهم. ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجره، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة، منها سبع وعشرون غزوة، وثمان وأربعون سرية. فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن، ونبي القرآن، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول إلى هذا الميدان.؟

وأما الفرض الثالث: فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعا بإعجازه، وعجزهم الفطري عن مساجلته، ولو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان هذا مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا لأنفسهم العذر، وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم، فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن، يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر، أن يتبينوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن، وكل هذه اللوازم باطلة، فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة..)[٨٧]

(٨٧) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، (مرجع سابق) ج٢/ ص٣١٠ - ٣١٥ (باختصار يسير)

١٤ – وأخيرا لا آخرا تأثير القرآن في أنفس العرب: – فقد أجمع أساطين الأدب والبيان – قديما وحديثا – ، على أن للعرب في عصر الرسالة قدما راسخة في البيان، وبلاغة المنطق، وتذوق الكلام، والتمييز بين جيده ورديئه، وليس أدل على ذلك مما قاله الجاحظ في كتابه – حجج النبوة – ، حيث قال: – (بعث الله محمدا – صلى الله عليه وسلم – أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا اقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من أعلامهم، وعليائهم، وأعمامهم، وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديا لهم بها، وتقريعا لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستورا، وظهر منه ما كان خافيا..

إلى أن يقول: إن القرآن إذ تحداهم بالحجة، لم يقدروا على الإتيان بمثله عجزا منهم ووهنا، لا تهاونا وتغافلا، لأن الاتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم قتل الأنفس والأولاد، وأن التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب، والبدو خاصة، لما فيهم من الأنفة والعزة، فكيف والقرآن يتحداهم في أخص خصائصهم وهو البيان، وهم قد عرفوا فيه بالبراعة والبلاغة..؟)[٨٨].

ومع عناد مشركي مكة، ومحاربتهم لدعوة محمد – صلى الله عليه وسلم – فإن فصحاءهم لم يكتموا إعجابهم ببلاغة القرآن، وحسن تعبيره، وقوة تأثيره، وجمال نظمه، وروعة إيقاعه.

وقد صدرت عن فصحائهم وبلغائهم أقوال صريحة تشير الى علو كعبه في هذا المضمار، وذلك إبان تفكيرهم في القرآن، وحيرتهم في جمال نظمه

---

(٨٨) الجاحظ: حجج النبوة: – ضمن رسائل الجاحظ – ص ١٤٩. ود. محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي – ص٧٦.

وجلال معناه، ولعل الوليد ابن المغيرة – وهو من بلغاء عصر الوحي – أول من تنبه إلى عظمة القرآن، فكانت كلمته المأثورة أول تقريظ ناله القرآن من بلغاء عصره ومصره والتي يقول فيها: –

(والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق – يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطال فرعها – ، وإن غرسه لجنا – أي كثير الجنى وهو الثمر – وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته)[٨٩]، وما كان له أن يقولها لوعلم إمكان معارضته.

وروى الامام محمد بن اسحق في كتاب السيرة (أن – عتبة بن ربيعة – كان سيدا في قومه، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء.ويكف عنا..؟فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إليه، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السطة (أي: الشرف) في العشيرة، والكمال في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا، فتنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها.

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا: جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا: سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا: ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالناحتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع إليه قال: أفرغت يا أبا الوليد..؟

---

(٨٩) ابن هشام: السيرة النبوية – ج١ / ص٢٣٤ – ٢٣٥.

قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾(٩٠) ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه، وهو ملق يديه خلف ظهره، معتمدا عليهما، حتى انتهى الرسول إلى السجدة، ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس اليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد..؟

قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.)(٩١).

وأمر الطفيل بن عمرو الدوسي كأمر هؤلاء الذين أثر فيهم القرآن، كان شريفا في قومه، شاعرا نبيلا، قدم مكة، فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من اتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – قائلين: إنا نخشى عليك وعلى قومك، فإذا ما دخل عليك فلا تكلمه ولا تسمع منه، يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت – أي قصدت وعزمت – على أن لا أ سمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت المسجد فحشوت أذني كرسفا (أي قطنا) فرقا (أي خوفا) من أن يبلغني شيئا من قوله، فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبا منه، فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي: أنا ما يخفى علي

---

(٩٠) سورة فصلت / ١ – ٤.

(٩١) ابن هشام: السيرة النبوية، (مرجع سابق)ج١/ ص٢٣٤ – ٢٣٥.

الحسن من القبيح، فما يمنعني من أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلت،وإن كان قبيحا تركت، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا، حتى سددت أذني بكرسف كي لا أسمع قولك، فاعرض علي أمرك،فعرض عليه الاسلام، وتلا عليه القرآن، قال الطفيل: والله ما سمعت قط قولا أحسن من هذا، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت.)[٩٢]

وأكتفي بما ذكرته من أخبار منسوبة لمشركي قريش، تدل على اعترافهم الصريح بإعجاز القرآن الكريم، وبلوغه درجة في البيان لم يبلغها شاعر، ولا خطيب منهم، وتبين تأثيره في القلوب التي كانت تهفو لمعرفة الحق، وتتوق للوصول إلى الطمأنينة والأمان، وفي القلوب الصلدة رغم المكابرة والعداوة، فلامس القرآن شغاف قلوب بعضهم، وملك أفئدتهم وعقولهم فعرفوا مزيته وإعجازه، فقادهم إلى صراط الحق القويم.

---

(٩٢) ابن هشام: السيرة النبوية، (مرجع سابق)، ج٢ / ص ١٨ - ٢١.

الخاتمة

بعد هذا العرض لمفهوم الصرفة، تبينت لي حقيقتان هامتان، أشير إليهما بإجمال:

الحقيقة الأولى: – أن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون، لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، إذعانا لبلاغته وفصاحته، مع أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فما فعلوا لئلا يسفوا في تفكيرهم، فدل هذا على عجزهم المطلق، (إذ نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم، وتحت مقدورهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب راجح..)[٩٣]

الحقيقة الثانية: – أن القرآن جذب كثيرا من العرب إلى الإيمان بما فيه من قوة بيان وإيجاز معجز، وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها، وإطنابها الرائع، وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها حقها، بالعبارة الناصعة، والإشارة الواضحة، فأدركوا أن إعجازه ذاتي، نابع منه، وأنه فوق طاقة البشر. وهذا يقودنا إلى أن القول بالصرفة قول باطل، وساقط عن الاعتبار، وإن قال به نفر من أعلام العلماء، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف بسلامة الاستدلال.

وأن إعجاز القرآن ذاتي، فهو معجز بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، مما جعل العرب يستعظمون بلاغة القرآن وفصاحته، ولو كانوا مصروفين عن المعارضة، لكان تعجبهم للصرف، لا للبيان المعجز، ولو كان هناك سلب لعلومهم، لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك، بطل القول بالصرفة.

---

(٩٣) الخطابي: بيان إعجاز القرآن، (مرجع سابق) ص/ ٢١.

مراجع البحث

١ - أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: د. محمد زغلول سلام، تقديم د. محمد خلف الله أحمد، ط٣، دار المعارف بمصر.

٢ - إعجاز القرآن: أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥٤م.

٣ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، حققه محمد سعيد العريان ط٣، ١٩٤٥، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

٤ - أعلام النبوة: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت ٤٥٠هـ): الطبعة الأولى ١٩٨٧م - مكتبة الآداب، مصر تعليق: د. عبد الرحمن حسن محمود

٥ - الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار التراث بالقاهرة، ط ٣، ١٩٨٥م.

٦ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني: (ت٤٧٨هـ)، تحقيق: د. محمد يوسف موسى وزميله، طبع الخانجي بمصر سنة ١٩٥٠ م.

٧ - الإعجاز البلاغي: د. محمد محمد أبو موسى، ط٢، ١٩٧٧م، مكتبة وهبة، القاهرة.

٨ - الإعجاز الفني في القرآن: د. عمر السلامي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠ م.

٩ - الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره: د. عبد الغني محمد سعد بركة، ط١، ١٩٨٩م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٠- الاقتصاد في الاعتقاد: حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، (ت ٥٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

١١- الإلهيات: جعفر السبحاني، منشورات المركز العالمي للدراسات الاسلامية - إيران.

١٢- الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي:)ت ٤١٤هـ)، تحقيق أحمد أمين وزميله، لجنة االتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٩م.

١٣- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٩٥٧م.

١٤- البخلاء: لأبي عثمان عمرو بن بحرالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)،، اصدار دار الشئون الثقافية العامة ببغداد سنة ١٩٩١م

١٥- بيان إعجاز القرآن الكريم: لأبي سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ت٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلف الله أحمد، وزميله، ط٣، دار المعارف، بالقاهرة.

١٦- البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار - عمان، الأردن.

١٧- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تعليق: محمود رياض الحلبي، دار المعرفة - بيروت ١٩٧٧م.

١٨- تسهيل نهاية الايجاز في دراية الاعجاز: محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) تيسير عبد القادر حسين، دار الاوزاعي، قطر، ١٩٨٩م.

١٩- تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي: محمد بن يوسف (ت٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠- تفسيرالقرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، مطبعة الإستقامة، القاهرة.

٢١- التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري: د. وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة - قطر، ١٩٨٥م.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م.

٢٣- الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي: خالد العلي، دار الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م.

٢٤- حجج النبوة: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - ضمن رسائل الجاحظ - تحقيق: عبد السلام محمد هارون،ط١، الخانجي،القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٥- حول إعجاز القرآن: علي العماري، سلسلة الثقافة الاسلامية - عدد: ٤٤، حزيران ١٩٦٣ م، القاهرة.

٢٦- الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن: د.عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

٢٧- الحيوا ن: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م.

٢٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، بيروت، ١٩٧٨م.

٢٩- سر الفصاحة: لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ)تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٥٣م.

٣٠- السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ) - حققها وضبطها مصطفى السقا وزملاؤه.الطبعة الأولى - دار الخير بدمشق - ١٩٩٦

٣١- شرح الأصول الخمسة، تحقيق د. عبد الكريم عثمان،مكتبة وهبة، ط١، مصر، ١٩٦٥م.

٣٢- شرح الشفا للقاضي عياض: للإمام الملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٣- شرح المواقف للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (ت٧٥٦هـ): السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني: (ت ص٨١٢هـ) ط١، مطبعة السعادة، مصر ١٩٠٧م.

٣٤- طبقات المعتزلة: ابن المرتضى (أحمد بن يحيى)، تحقيق سوسنة ريفلد فلزر، ط بيروت ١٩٦١ م.

٣٥- طبقات المعتزلة: القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ)، تحقيق علي سامي النشار، ط مصر ١٩٧٢م.

٣٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة اليمني العلوي (ت ٧٤٩هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧- العقيدة النظامية في الأركان الاسلامية: لإمام الحرمين عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

٣٨- علوم القرآن عند المفسرين، مركز الثقافة والمعارف القرآنية، مكتب الإعلام الإسلامي ط١، ١٤١٦هـ، ايران.

٣٩- الفرق بين الفرق: عبد القاهربن طاهرالبغدادي (ت ٤٢٤هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م.

٤٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل: علي بن أحمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)، دار صادر، بيروت.

٤١- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ط٢،١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٤٢- فكرة النظم في تطورها وأهدافها: د. بسيوني عرفة، ط ١، دار الرسالة بالقاهرة، ١٩٨٢م.

٤٣- الفهرست: لابن النديم، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣هـ)، ط بيروت ١٩٦٤م.

٤٤- قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين: د. عبد الفتاح محمد سلامة، دار التوفيقية للطباعة، الأزهر، ١٩٨٠م.

٤٥- كتاب أبو الحسن الماوردي: د. محمد سليمان داود، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.

٤٦- الكندي فيلسوف العرب: أحمد فؤاد الأهوا ني، سلسلة أعلام العرب عدد/ ٢٦، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة

٤٧- لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م، عني بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب وزميله، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان.

٤٨- لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية: محمد بن أحمد السفاريني (ت١١٨٩هـ)، ط٢ دمشق، ١٤٠٢ للهجرة.

٤٩- مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م.

٥٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت ٥٤١هـ)، تحقيق عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، وزميله، ط١، قطر.

٥١- مشكلة الألوهية: د. محمدغلاب: ، ط٢، ١٩٥١م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٥٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

٥٣- المعتزلة: زهدي حسن جار الله: منشورات النادي العربي، يافا،١٩٤٧م.

٥٤- المعجزة الكبرى – القرآن: لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى (ت١٩٧٤م)، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة _ بدون تاريخ.

٥٥- المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ) تحقيق: أمين الخولي – (ج ١٦ – إعجاز القرآن)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة.

٥٦- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: فخر الدين محمد بن عمرالرا زي (ت٦٠٦هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران.

٥٧- مقدمة جامع التفاسير، مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة، للإمام العلامة أبي القاسم الراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق حواشيه، أ. د. أحمد حسن فرحات، ط١، ١٩٨٤م، دار الدعوة، الكويت

٥٨- الملل والنحل: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، (على هامش الفصل لابن حزم الاندلسي)، دار صادر، بيروت.

٥٩- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٦٠- المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن: د. أحمد أبو زيد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرباط.

٦١- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم: د. أحمد سيد محمد عمار ط١، ١٩٩٨م. دار الفكر بدمشق.

٦٢- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، تحقيق د. محمد خلف الله أحمد وزميله

٦٣- النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، راجعه وعلق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٢ للهجرة.

٦٤- مجلة الأزهر الشريف، مجلد / ٢١، ١٣٦٩هـ.